أنَساقُ التَّركيبِ القُرْآنيّ
في الخِطَابِ الأَخْلَاقِيّ عِنْدَ علماءِ الحِلَّة
(دراسةٌ تفسيريَّةٌ)

Patterns of Qur'anic Structure in Ethical Discourse According to Hilla Scholars (An Explanatory Study)

أ.م.د. صاحبعلي أكبري

جامعة فردوسي/كليَّة الإلهيَّات وعلوم القرآن

م.م. قاسم عليوي سلمان

Asst. Prof. Dr. Sahebali Akbary

Ferdowsi University/College of Theology and Qur'anic Sciences

Asst. Lect. Qasim Aliwi Salman

ملخَّص البحث

لا جَرَم أنَّ القُرآن الكريم يُمَثّلُ دائرةً استشـهاديّة عظيمةَ المضمونِ واسعةَ البيانِ في المدّونات الإسـلاميّة، ولا سـيما الأخلاقيَّةِ منها؛ إذ إنَّ الخطابَ الأخلاقيّ يعتمدُ اعتمادًا كبـيرًا عـلى النصوصِ القرآنيّةِ؛ لأنَّ الأخيرةَ تُعدّ الأسـاسَ في أيِّ فضيلةٍ، وركيزةٍ في أيّ قيمةٍ أخلاقيّةٍ، زِد على ذلك التحذيرَ من الرذائلِ، والتنبيهَ والإيقاظَ منها.

مـن هنا جـاء هذا البحثُ، من أجل كشـفِ النقاب عن أنسـاقِ التركيـبِ القُرآنيّ المتنوّعةِ في الخطاب الأخلاقيّ عِنْدَ علماء الحِلَّة، ولا سيما في كتاب (تنبيه الخواطر ونزهة النواظر) للشيخ ورّام الحِلِّيّ (ت ٦٠٥هـ)، وكتاب (كشف المحجّة لثمرة المهجة) للسيِّد عـليّ بن طاووس الحِلِّيّ (ت ٦٦٤هـ)، ووصيةِ العلَّامـةِ الحِلِّيّ (ت ٧٢٦هـ)، لولده فخر المحقِّقين (ت ٧٧١هـ)، وعُدّة الداعي ونجاح السّاعي لابن فَهْدٍ الحِلِّيّ (ت ٨٤١هـ).

وجـاء هـذا البحثُ في مبحثـينِ، تناولتُ في الأوَّلِ: النسـقَ المباشرَ في الاستشـهادِ بالنـصّ القُـرْآنيّ في الخطـابِ الأخلاقـيّ، وتناولـتُ في الثـاني: النسـق غـير المباشرِ في الاستشهادِ بالنصّ القُرْآنيّ في الخطابِ الأخلاقيّ.

الكلمات المفتاحيَّة:

(الاستشهادُ، القُرآنُ، الخطابُ، الأخْلاقيُّ، الحِلَّةُ).

Abstract

There is no doubt that the Holy Qur'an represents a great citing circle with wide content in Islamic literature. Especially the ethical one, as the moral discourse relies heavily on the Qur'anic texts, because the latter is the basis for any virtue and a pillar of any ethical value, in addition to the warning against vices and warning against them.

That is why this research came in order to unveil the various forms of the Qur'anic composition in the ethical discourse among the scholars of Hilla, especially in the book (Tnbih Al-Khawatir wa nuzhat Al-Nwadher) by Sheikh Warram Al-Hilli (D. 664 A.H), And the book (Kashf Al-Mahejah Lithamrat Al-Mohjah) by Sayed Ali bin Tawus Al-Hilli (D.664 A.H),and the will of Allama Al-Hilli (D. 726 A.H) to his son Fakhr Al-Muqiqiyn (D. 771 A.H), and (Aidat Al-Daaei wa Najah Al-Sa'i) by Ibn Fahd Al-Hilli (D.831 A.H).

This research came in two sections, which I dealt with in the first: the direct pattern of citing the Qur'anic text in ethical

discourse, and in the second I dealt with the indirect pattern of citing the Qur'an text in ethical discourse.

Keywords:

(Cited, Qur'an, Speech, Moral, Hillah).

مدخل

لا شَكَّ في أنَّ الخطابَ الأخلاقيَّ في مدرسة الحِلَّة العلميَّة قد زَخَرَ في كثيرٍ من الآيات القرآنيَّة التي استولى بها منتجو الخطاب الأخلاقيّ؛ ليبيِّن للأمة شدّة ارتباطهم مع القرآن قولًا وفعلًا، وكذلك حاجة الأمَّة للارتباط بالقرآن الكريم، ولاسيما بعد أن ابتعدت الأمَّة عن كتابها العظيم.

ومِن البَدَهي أنَّ الاستشهادات تمثِّل كيفيَّة اصطفاء الآيات القرآنيَّة المناسبة للموضوع، أو الغرض الذي من أجله، فهي تجسِّد إعلامًا فعَّالًا يعطي قوَّةً وزخمًا وإنجازًا وتأثيرًا في نفوس المتلقِّين.

ومن هنا سعيتُ في ضوء جمع تلك الآيات القرآنيَّة من المصادر الموثَّقة، ولاسيما الأخلاقيَّة مِنها أن أجمع عددًا كثيرًا منها، وإن تكرَّرت في مواضع مختلفة تكرارًا يُعَدُّ جمعًا موضوعيًّا من أجل تكشيف الدلالات بالإفادة من أقوال المفسِّرين، وهذا ما سيتجلَّى في مسارات البحث.

بمبحثين، عُنِيَ الأوَّل به الحديث عن النسق المباشر بالنصوص القرآنيَّة، وكان في الاستشهاد بجزء من الآية أو بآية كاملة أو بمقطع من الآيات، وعُنِيَ المبحث الثاني بدراسة الاستشهاد غير المباشر (الاستشهاد غير المباشر المحوَّر)، والمضامين والدلالات غير المباشرة.

المبحث الأوَّل

النَّسَقُ المباشرُ في الاستشهادِ بالنصِّ القرآنيّ في الخطاب الأخلاقيّ

في هذا المبحث سنتناولُ أنساق التركيب القرآنيّ (الشاهد القرآنيّ) وأنماطه في الخطاب الأخلاقيّ عند علماء الحِلَّة، وسيكون في ثلاثة مطالب، وهي:

المطلب الأوَّل: الاستشهاد بجزء من الآية القرآنيَّة.

المطلب الثاني: الاستشهاد بآية قرآنيَّة كاملة.

المطلب الثالث: الاستشهاد بمقطع من الآيات القرآنيَّة.

المطلب الأوَّل: الاستشهاد بجزء من الآية القرآنيَّة

في هذا المطلب سنتحدَّث عن الاستشهاد بجزء من الآية في الخطاب الأخلاقيّ عند علماء الحِلَّة.

١. ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (من التوبة: ١٠٥).

استشهد ابن طاووس بهذا الجزء من الآية في معرض حديثه عن المخصوصين بالإيمان، فيرى أنَّهم أئمَّةُ أهلِ البيتِ عليهم السلام، فقد نقل رواية أنَّ الأعمال تُعرض على النبي صلى الله عليه وآله في كلِّ اثنين وخميس فيعلمها، وكذلك تعرض على الأئمة عليهم السلام فيعرفونها، وهم المعنيون بقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ ومن ذلك ما رواه الفضل بن الحسن الطبرسيّ

(رضوان الله عليه) في كتاب تفسير القرآن، في تفسير هذه الآية، فقال: روى أصحابنا أنَّ أعمال الأمَّة تُعرض على النبيّ صلى الله عليه وآله في كلِّ اثنين وخميس فيعرفها، وكذلك تعرض على الأئمة عليهم السلام القائمين مقامه، وهم المعنيُّون بقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، وروى عبد الله بن جعفر الحميريّ في كتاب (الدلائل) نقل كلٌّ منها بإسناده إلى يعقوب بن شعيب، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، قال عليه السلام: **هم الأئمَّة** عليهم السلام[1]، ومن ذلك ما رواه أيضًا أبو العبَّاس بن عُقْدَةَ في كتابه المذكور بإسناده إلى يزيد بن معاوية العجليّ، قال: سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، قال عليه السلام: **إيَّانا عنى**[2].

إذ بَدَا أنَّ ابن طاووس قد أشار إلى أمرَين في النصِّ المبارك، الأوَّل: إنَّ أعمال العباد تُعرض على النبيّ صلى الله عليه وآله، والثاني: إنَّ المخصوصين بالنصِّ المبارك ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ هم الأئمَّة عليهم السلام، ونرى أنَّ هذه الآية عامَّة تجري وتنطبق على كلِّ مؤمنٍ وصل في درجة الإيمان المطلق بالله ورسوله.

ويرى الفخر الرازيّ (ت ٦٠٦هـ) «أنَّ العبد إذا أطاع علم المعبود طاعته وقدر على إيصال الثواب إليه في الدنيا والآخرة، وإن عصاه علم المعبود ذلك، وقدر على إيصال العقاب إليه في الدنيا والآخرة، فقوله: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ ترغيب عظيم للمطيعين، وترهيب عظيم للمذنبين، فكأنَّه تعالى قال: اجتهدوا في المستقبل، فإنَّ لعملكم في الدنيا حكمًا وفي الآخرة حكمًا، أمَّا حكمه في الدنيا فهو أنَّه يراه الله ويراه الرسول ويراه المسلمون، فإن كان طاعة حصل منه الثناء العظيم والثواب العظيم في الدنيا والآخرة، وإن كان معصية حصل منه الذمُّ العظيم في الدنيا والعقاب الشديد في الآخرة»[3].

واستشعر الفخرُ الرازيّ الجانب المعنويّ للمؤمنين والمطيعين في ما سيلاقونه من البشارة والجزاء العظيم، مهتديًا بالأسلوب البلاغيّ في النصِّ المبارك، ولاسيما حرف الاستقبال السين الذي اتَّصل بالفعل المضارع (فَسَيَرَى)، فالسين نظير الاستقبال والسرعة، وهذا ملمح دلاليّ مقبول.

ويرى الطاهر بن عاشور: «المراد بالعمل ما يشمل العمل النفسانيّ من الاعتقاد والنيَّة وإطلاق العمل على ما يشمل ذلك تغليب وتفريع ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ زيادة في التحْضيض، وفيه تحذير من التقصير أو من ارتكاب المعاصي؛ لأنَّ كون عملهم بمرأى من الله ممَّا يبعث على جعله يرضي الله تعالى، وذلك تذكير لهم باطِّلاع الله تعالى بعلمه على جميع الكائنات، وهذا كقول النبيّ ﷺ في بيان الإحسان: (هو أن تعبد الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك)، وعطف (ورسوله) على اسم الجلالة؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام هو المبلِّغ عن الله، وهو الذي يتولَّى معاملتهم على حسب أعمالهم»(٤).

ولا يخفى أنَّ الطاهر بن عاشور قد جعل المؤمنين هم شهداء الله، وإن لم يصرِّح بذكر الأئمَّة. وجعل الشيخ ناصر مكارم الشيرازي أنَّ الآية تأمر النبيّ ﷺ أن يبلِّغ الناس: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، فهي تشير إلى أن لا يتصوَّر أحد أنَّه إذا عمل عملًا، سواء في خلوته أم بين الناس، فإنَّه سيخفى على علم الله سبحانه، بل إنَّ الرَّسول ﷺ والمؤمنين يعلمون به إضافةً إلى علم الله عليهم السلام. إنَّ الالتفات إلى هذه الحقيقة والإيمان بها له أعمق الأثر في تطهير الأعمال والنيَّات»(٥).

وهذا ما نؤيِّده في النصِّ التفسيريّ لناصر مكارم الشيرازيّ الذي جعل الخطاب عامًّا، فهو يشمل كلَّ الأفراد والمؤسَّسات الخيريَّة، فضلًا عن ذلك إطلاق إجراء العمل الصالح في كلِّ لحظةٍ، وهذا ما نشجِّعه ونذهب إليه.

٢. ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات: ١٢).

في هـذا النصِّ الذي جاء جزءًا من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، يؤكِّد الشيخ ورَّام على ملمح أخلاقـيّ عظيم المضمون، «وهو حفظ كرامة الإنسـان، وبخلافها انتهاك حرمة لهذا ما عبرت عنه الآية المباركة خفضت أعلام الهداية ورفعت منارات الغواية، وهذه استعارة مبناهـا على أصـل معروف في كلام العرب، وهو تسـميتهم المغتاب بـآكل لحوم الناس (...)، وقولـه تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي عافته نفوسـكم، وقـال بعضهم: تلخيص هذا المعنـى أنَّ من دعي إلى غيبة أحد أن تعاف ذلك نفسـه مـن جهة عقله، فيجب أن يكون هـذا عقلًا كما كـره الأوّل؛ لأنَّه داعي العقل بالاتباع أولى مِن داعي الطبع إذا كان الطبع أعمى جاهلًا وداعي العقل بصيرًا عالـمًا، وكلاهما في صفة الناصح، إلَّا أنَّ نصح العقل سليم مأمون، ونصح الطبع ظنين»[٦].

«قولـه ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي لا تتَّبعوا عثرات المؤمـن (...)، وقيل: للمؤمن حقٌّ على المؤمن ينافي التجسُّس عن مساوئه، وقيل: يجب على المؤمن أن يتجنَّب ذكره المستور عنـد الناس بقبيـح؛ لأنَّ عليهم أن يكذِّبوه ويردُّوا عليـه، وإن كان صادقًا عند الله؛ لأنَّ الله سـتره عن الناس، وإنَّما دعا الله تعالى المؤمن إلى حسن الظنّ في بعضهم ببعض الألفة والتنـاصر على الحقِّ، ونهوا عن سـوء الظنِّ؛ لـما في ذلك من التقاطـع والتدابر، وقوله: ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾، فالغيبة ذكر العيب بظهـر الغيب على وجه تمنع الحكمة منـه. ويروى في الخـبر إذا ذكرت المؤمن بما فيه ممَّا يكرهه الله، فقـد اغتبته وإذا ذكرته بما ليس فيه، فقد بهتَّه، وقوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ معناه إنَّ مَن دعي إلى أكل لحم أخيه فعافته نفسـه، فكرهته من جهة طبعه، فإنَّه ينبغي إذا دعي

إلى عيب أخيه فعافته نفسه من جهة عقله، فينبغي أن يكرهه؛ لأنَّ داعي العقل أحقُّ بأن يتَّبع مَن داعي الطبع؛ لأنَّ داعي صفة الناصح، وهذا مِن أحسن ما يدلُّ على ما ينبغي أن يجتنب من الكلام»(٧).

وأشار الفخر الرازيّ إلى الملمح الأخلاقيّ في النصِّ المبارك، وهو وجوب حفظ عرض المؤمن في غيبته قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ إتمامًا لما سبق؛ لأنَّه تعالى لما قال: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾ فُهم مِنه أنَّ المعتبر اليقين، فيقول القائل: أنا أكشف فلانًا، يعني أعلمه يقينًا وأطَّلع على عيبه مشاهدة فأعيب فأكون قد اجتنبت الظنَّ، فقال تعالى: ولا تَّتبعوا الظنَّ، ولا تجتهدوا في طلب اليقين في معايب الناس، ثمَّ قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ إشارة إلى وجوب حفظ عرض المؤمن في غيبته، وفيه معانٍ، **أحدها**: في قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾، فإنَّه للعموم في الحقيقة كقوله: ﴿لَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (الحجرات: ١١)، وأمَّا مَن اغتاب، فالمغتاب أوَّلًا يعلم عيبه فلا يحمل فعله على أن يغتابه فلم يقل: ولا تغتابوا أنفسكم؛ لما أنَّ الغيبة ليست حاملة للعائب على عيبه من اغتابه، والعيب حامل على العيب. **ثانيها**: لو قال قائل هذا المعنى كان حاصلًا بقوله تعالى: لا تغتابوا، مع الاقتصار عليه نقول لا؛ وذلك لأنَّ الممنوع اغتياب المؤمن فقال: ﴿بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾، وأمَّا الكافر فيلعن ويذكر بما فيه، وكيف لا والفاسق يجوز أن يذكر بما فيه عند الحاجة. **ثالثها**: قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ دليل على أن الاغتياب الممنوع اغتياب المؤمن لا ذكر الكافر؛ وذلك لأنَّه شبَّهه بأكل لحم الأخ»(٨).

ويظهر أنَّ الفخر الرازيّ قد أفاد مِن السياق القُرْآنيّ في استجلاء دلالة المخصوص من قوله: ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ بأنَّهم المؤمنون حصرًا، ولا يدخل في الخطاب الكفَّار بدليل قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

وقد توسَّع الطاهرُ بنُ عاشورٍ في تحليل البنية للخطاب الأخلاقيّ في النصِّ المبارك قال: «الاغتياب: افتعال من غَابه المتعدِّي، إذا ذَكره في غيبه بما يسوءه، فالاغتياب ذكر أحد غائب بما لا يُحب أن يُذكَر به، والاسم منه الغِيبة بكسر الغين مثل الغِيلة وإنَّما يكون ذكره بما يكره غِيبةً إذا لم يكن ما ذكره به مما يثلم العِرض وإلَّا صار قذعًا، وإنَّما قال: ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ دون أن يقول: اجتنبوا الغيبة لقصد التوطئة للتمثيل الوارد في قوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾؛ لأنَّه لمَّا كان ذلك التمثيل مشتملًا على جانب فاعل الاغتياب ومفعولِه مُهِّد له بما يدلُّ على ذاتين؛ لأنَّ ذلك يزيد التمثيل وضوحًا، والاستفهام في ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ تقريري لتحقق أنَّ كلَّ أحدٍ يقرُّ بأنَّه لا يحب ذلك، ولذلك أجيب الاستفهام بقوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (...)، والتمثيل مقصود منه استفظاع الممثَّل وتشويهه لإفادة الإغلاظ على المغتابين؛ لأنَّ الغيبة متفشية في الناس وخاصة في أيام الجاهليَّة، فشبهت حالة اغتياب المسلم مَن هو أخوه في الإسلام وهو غائب بحالة أكل لحم أخيه وهو ميت لا يدافع عن نفسه، وهذا التمثيل للهيأة قابل للتفريق بأن يشبّه الذي اغتاب بآكل لحم، ويشبه الذي اغتيب بأخ، وتشبه غَيْبته بالمَوت»[٩].

ويبدو لنا أنَّ الطاهرَ بنَ عاشورٍ قَدِ اسْتَحْضَرَ الجانب البلاغيّ في النص القُرْآنيّ ولاسيما المبالغة فيه في ظلِّ الاستفهام التقريريّ، وكذلك التشبيه التمثيليّ البديع في النصّ القُرْآني: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

المطلب الثاني: الاستشهاد بآية قُرْآنيَّة كاملة

في هذا المطلب سيتمُّ الحديثُ عن الاستشهاد بآيةٍ كاملة في الخطاب الأخلاقيّ عند علماء الحِلَّة،ومن الشواهد القُرْآنيَّة التي جاءت في هذا النسق ما يأتي:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (البقرة: ١٥٩).

جاء الاستشهاد بهذه الآية المباركة من بيان وزر كتمان العلم وحجبه عن طالبيه، قال العلَّامة الحِلِّيّ (ت ٧٢٦هـ) في وصيَّة لابنه مُحذِّرًا ولده فخر المحقِّقين (ت ٧٧١هـ) مِن كتمان العلم، قال: «وإيَّاك كتمان العلم ومنعه عن المستحقِّين لبذله، فإنَّ الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾، وقال رسول الله ﷺ: (إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العلم معه ومن لم يفعل فعليه لعنة الله)، وقال ﷺ: (لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم وعليك بتلاوة الكتاب العزيز والتفكر في معانيه وأمتثال أوامره)»[١٠].

نَلْمَحَ أنَّ العلَّامة الحِلِّيّ جعل الآية عامَّة في كُلِّ مَنْ كتم العلم، بمعنى أنَّ الخطاب شامل لكلِّ مَنِ اتّصف بهذه الصفات.

وجد الزمخشريُّ أنَّ المخصوصين لهذا الخطاب هم الأحبار اليهود قال: «﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ من أحبار اليهود ﴿مَا أَنْزَلْنَا﴾ في التوراة ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ من الآيات الشاهدة على أمر محمَّد ﷺ ﴿وَالْهُدَى﴾ والهداية بوصفه إلى أتباعه والإيمان به ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ﴾ ولخَّصناه ﴿لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ في التوراة، لم ندع فيه موضع إشكال ولا اشتباه على أحد منهم، فعمدوا إلى ذلك المبين الملخص فكتموه ولَبَّسوا على الناس ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ الذين يتأتَّى منهم اللعن عليهم وهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين»[١١].

ولا نَرى تخصيص الخطاب القُرْآنيّ بالأحبار اليهود، بل الآية عامَّة في كُلِّ الذين كتموا العلم، وأخْفَوا آياتِ الله وبَيِّناتِهِ.

وهذا ما أيَّده الطاهرُ بنُ عاشورٍ استنادًا إلى أقوال المفسِّرين قال:«قال المفسِّرون: إنَّ هذه الآية نزلت في علماء اليهود في كتمهم دلائل صدق النبيّ محمَّدﷺ وصفاته وصفات دينه الموجودة في التوراة وفي كتمهم آية الرجم، قوله: ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٤٦) (يريد علماءهم)، ثمَّ عقَّب ذلك بتكملة فضائل الكعبة وشعائرها، فلمَّا تمَّ جميع ذلك عطف الكلام إلى تفصيل ما رماهم به إجمالًا في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ﴾ (البقرة:١٤٦)، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا﴾ إلخ، وهذه طريقة في الخطابة هي إيفاء الغرض المقصود»[١٢].

وذكر الطاهر ابن عاشور أنَّ الآية بحسب قول المفسِّرين نزلت في علماء اليهود متبِّعًا الزمخشريّ في ذلك، ثمَّ بعد ذلك الآية قد تنطبق على الذين حالهم في كتمان العلم مثل حال هؤلاء الأحبار اليهود.

وجعل الشيخ ناصر مكارم الشيرازيّ أنَّ الخطابَ في الآية الكريمة عامًّا يشمل الكفَّار، قال: «فالآية الكريمة تتحدَّث عن هؤلاء الكفَّار بشدَّة فالله سبحانه وعباده الصالحون وملائكته المقرَّبون يلعنون مَنْ يكتم الحقَّ، وبعبارة أُخرى، كلُّ أنصار الحقِّ يغضبون على مَنْ كتم الحقَّ وآية خيانة للعالم أكبر من محاولة العلماء كتمان آيات الله المودعة عندهم من أجل مصالحهم الشخصية ولتضليل النَّاس وعبارة: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ﴾ إشارة إلى أنَّ هؤلاء الأفراد يصادرون في الواقع جهود الأنبياء وتضحيات أولياء الله الصالحين، وهو ذنب عظيم، والفعل (يلعن) تكرَّر في الآية للتأكيد، واستعمل بصيغة المضارع؛ لبيان استمرار اللعن، ومن هنا فإنَّ لعنة الله ولعنة اللاعنين تلاحق هؤلاء الكاتمين لآيات الله باستمرار، وذلك أقسى صور العقاب، وبين مكاسب كتمان الحقِّ في المجتمعات البشريَّة، إذ له أثار سيِّئة وعميقة يتحمَّل آثارها العلماء الذين يعملون تلك الحقائق ويكتمونها، لعلَّ القرآن لم يهدِّد ويذمّ فئة كما هدَّد وذمَّ هذه الفئة ﴿وَإِذْ أَخَذَ

الله مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾ جدير بالذكر أنَّ إلهاءَ النّاس بالمسائل الفرعية، لصرف أنظارهم عن المسائل الأساسيَّة الحياتيَّة نوع من كتمان الحقائق إذا لم يشمله فرضًا تعبير (كتمان الحقائق)، فهو مشمول حتمًا بملاك وفلسفة كتمان الحقِّ كاتمة للحقائق»[١٣].

وهذا ما نرجِّحه في كون الخطاب القُرْآنيّ جاء عامًّا وهو ما ذهب إليه العلَّامةُ الحلِّيُّ- من قبل- فاللعن من الله ورسوله والمؤمنون لأولئك الذين يكتمون العلم، ويصرفون الناس عن المسائل الأساسيَّة، ودرس الحقائق الإلهيَّة العالية.

٣. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦).

في هذا النصِّ المبارك أشار ابنُ فَهْدٍ الحِلِّيّ إلى ملمح أخلاقيّ تربويّ، وهو الدعاء الذي يجسِّد دائرة تواصليَّة بين العبد ومعبوده، قال:«واعلم أنَّ هذه الآية قد دلَّت على أمور:

الأوَّل: تعريضه تعالى لعباده بسؤاله بقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.

الثاني: غاية عنايته بمسارعة إجابته ولم يجعل الجواب موقوفًا على تبليغ الرسول، بل قال: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، ولم يقل: قل لهم: إنِّي قريبٌ.

الثالث: خروج هذا الجواب بـ(الفاء) المقتضي للتعقيب بلا فصل.

الرابع: تشريعه تعالى لهم بردِّ الجواب بنفسه؛ لينبِّه بذلك على عمَّال منزلة الدعاء وشرفه عنده تعالى ومكانه منه، قال الباقر عليه السلام: «**ولا تملُّ من الدعاء فإنَّه من الله بمكان**»[١٤]، وقال عليه السلام ليزيد بن معاوية بن وهب، وقد سأله: كثرة القراءة أفضل أم

كثـرة الدعاء؟ فقـال عليه السلام: «كثرة الدعاء أفضـل»، ثم قرأ: ﴿قُـلْ مَا يَعْبَأُ بِكُـمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ (الفرقان:٧٧).

الخامس: دلَّت هذه الآية على أنَّه تعالى لا مكان له، إذ لو كان له مكان لم يكن قريب من كلِّ مَن يناجيه.

السادس: أمره تعالى لهم بالدعاء في قوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾، أي فليدعوني.

الســابع: قوله تعالى ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾، وقال الصادق عليه السلام أي: «وليتحقَّقوا أنِّي قادرٌ على إعطائهم ما سألوا»، فأمرهم باعتقادهم قدرته على أجابتهم وفيه فائدتان: إعلامهم بإثبات صفة القدرة له، وبسط رجائهم في وصولهم إلى مقترحاتهم وبلوغ مراداتهم ونيل سـؤالاتهم، فإنَّ الإنســان إذا علم قـدرة معامله ومعاوضة على دفـع عوضه، كان ذلك داعيًّا لـه إلى معاملته، ومرغِّبًا لـه في معاوضته، كما أنَّ علمه بعجـزه عنه على الضدِّ من ذلك، ولهذا تراهم يتجنَّبون معاملة المفلس.

الثامن: تبشيره تعالى لهم بالرشاد الذي هو طريق الهداية المؤدِّي إلى المطلوب، فكأنَّه بشَّرهم بإجابة الدعاء»[١٥].

أشـارَ ابنُ فَهْدٍ الحِلِّيّ إلى أثر الدعاء في تسريع الإجابة مبيِّنًا شرافته ومكانته عند الله تعالى.

وقد أبان الشـيخ الطوسيّ إلى اقتضاء المصلحة لزيادة الدعاء إن لم تكن فيه مفسده، قال: «وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، معناه: إن اقتضت المصلحة إجابته، وحسـن ذلك، ولم تكن فيه مفسـدة، فأمَّا أن يكون قطعًا لكلِّ مَنْ يسأل، فلا بدَّ أن يجيبه فلا، على أنَّ الداعي لا يحسن منه السؤال إلَّا بشرط ألَّا يكون في إجابته مفسدة، لا لـه، ولا لغيره، وإلَّا كان الدعاء قبيحًا، ولا يجوز أن يقيِّد الإجابة بالمشـيئة بأن يقول:

إن شئت؛ لأنَّه يصير الوعد به لا فائدة فيه، فمَن أجاز ذلك فقد أخطأ، فإن قيل: إذا كان لا يجيب كلَّ مَن دعا، فما معنى الآية؟ قلنا معناه أنَّ من دعا- على شرائط الحكمة التي قدَّمناها- واقتضت المصلحة إجابته، أُجيب لا محالة، بأنْ يقول: اللَّهمَّ افعل بي كذا، إن لم يكن فيه مفسدة لي أو لغيري في الدين، أو هذا في دعائه، وفي الناس من قال: إنَّ الله وعد بإجابة الدعاء منه عند مسألة المؤمنين دون الكفَّار والفاسقين، والمعتمَد هو الأوَّل (...)، وقوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ قيل في معناه قولان: أحدهما- إنِّي قريب الإجابة: سريع الإجابة، فجاز ذلك لمشاكلة معنى قريب لسريع، الثاني: ﴿قَرِيبٌ﴾؛ لأنَّه سمع دعاءهم كما يسمعه القريب المسافة منهم، فجاز لفظة قريب، فحسن البيان بها»[١٦].

ونَرى أنَّ الشيخ الطوسيّ قَيَّد الدعاء بعدم المفسدة، وعدم الشرطيَّة (إنْ شئت)، وأنَّ الدعاء مستجاب من الله؛ لقربه من عبادة وحُبِّه لهم.

وأبان الفخر الرازيّ سبب نزول هذه الآية، قال: «ذكروا في سبب نزول هذه الآية وجوهًا، **أحدها**: ما روي عن كعب أنَّه قال، قال موسى عليه السلام: يا ربِّ أقريب أنتَ فأُناجيك، أم بعيد فأُناديك؟ فقال: يا موسى أنا جليس مَن ذَكَرني، قال: يا ربِّ فإنَّا نكون على حالة نجلُّك أن نذكرك عليها من جنابةٍ وغائط، قال: يا موسى اذكرني على كلِّ حالٍ، فلمَّا كان الأمر على هذه الصفة رغب الله تعالى عباده في ذكره وفي الرجوع إليه في جميع الأحوال، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وثانيها: إنَّ أعرابيًا جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: أقريب ربُّنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وثالثها: أنَّه عليه السلام كان في غزوة، وقد رفع أصحابه أصواتهم بالتكبير والتهليل والدعاء، فقال عليه السلام: (**إنَّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنَّما تدعون سميعًا قريبًا**).

ورابعها: ما روي عن قتادة وغيره أنَّ سببه أنَّ الصحابة قالوا: كيف ندعو ربَّنا يا نبيَّ الله؟ فأنزل هذه الآية.

وخامسها: قال عطاء وغيره: إنَّهم سألوه في أيِّ ساعةٍ ندعو الله؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وسادسها: ما ذكره ابن عبَّاس، وهو أنَّ يهود أهل المدينة قالوا: يا محمَّد كيف يسمع ربُّك دعاءنا؟ فنزلت هذه الآية.

وسابعها: قال الحسن: سأل أصحاب النبيّ ﷺ فقالوا: أين ربُّنا؟ فأنزل الله هذه الآية، العبد ملتفتًا إلى غرض نفسه لم يكن قريبًا من الله تعالى؛ لأنَّ ذلك الغرض يحجبه عن الله، فثبت أنَّ الدعاء يفيد القرب من الله، فكان الدعاء لحجَّة الثانية في فضل الدعاء: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠)»[١٧].

ويبدو أنَّ الوجوه التي ذكرها الفخر الرازيّ لا تكاد تخلو من الإخلاص في الدعاء، واختيار الوقت المناسب له، والإتيان بالقرب الإلهيّ حينما يدعو الإنسان.

وقد توسَّع السيِّد الطباطبائيّ في تكشيف أهمِّ المضامين التي تضمَّنتها الآية المباركة، فأشار إلى سبع نكاتٍ، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أحسن بيان؛ لما اشتمل عليه من المضمون، وأرقّ أسلوب وأجمله، فقد وضع أساسه على التكلُّم وحده دون الغيبة ونحوها، وفيه دلالة على كمال العناية بالأمر، ثمَّ قوله: عبادي، ولم يقل: الناس وما أشبهه يزيد في هذه العناية، ثمَّ حذف الواسطة في الجواب، حيث قال: فإنِّي قريبٌ، ولم يقل: فقل إنَّه قريب، ثمَّ التأكيد بإنَّ، ثمَّ الإتيان بالصفة دون الفعل الدالِّ على القرب؛ ليدلَّ على ثبوت القرب ودوامه، ثمَّ الدلالة على تجدُّد الإجابة واستمرارها، حيث أتى بالفعل المضارع الدالِّ عليهما، ثمَّ تقييده الجواب

- أعني قوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾- بقوله: إذا دعانِ، وهذا القيد لا يزيد على قوله: دعوة الدَّاعِ المقيَّد به شيئًا بل هو عينه، وفيه دلالة على أنَّ دعوة الدَّاعِ مجابة من غير شرط وقيد، كقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، فهذه سبع نكات في الآية تُنبيء بالاهتمام في أمر استجابة الدعاء والعناية بها، مع كون الآية قد كرَّر فيها- على إيجازها- ضمير المتكلِّم سبع مرَّات، وهي الآية الوحيدة في القرآن على هذا الوصف»[١٨].

المطلب الثالث: الاستشهاد بمقطع من الآيات

في هذا المطلب سنتحدَّث عن الاستشهاد بمقطع من الآيات في الخطاب الأخلاقيّ عند علماء الحِلَّة.

١. ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ (الزمر: ٥٣-٥٤).

استشهد بهذه الآيات الشيخ ورَّام في حقِّ العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة، فقال له الشيطان: فأنَّى تُقبل توبتك؟ فقنَّطه من رحمة الله، فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء، ويتذكَّر أنَّ الله كريم يقبل التوبة عن عباده، وأنَّ التوبة طاعة تكفِّر الذنوب.

قال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ أمرهم بالإنابة، وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ، فإذا توقَّع المغفرةَ على التوبة فهو راجٍ، وإن توقَّع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور، فيجب أن يعين نفسه على أداء الفرائض وفضائل الأعمال، فيرجي نفسه نعيم الجنة وما وعد الله

الصالحين حتَّى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة، ويُقبل على العبادة والأعمال الصالحة، ويتذكَّر قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾، فالرجاء الأوَّل يقمع القنوط المانع من التوبة، والرجاء الثاني يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمير، فكلُّ توقُّعٍ حثٌّ على توبة وعلى تشمير في العبادة فهو رجاء، وكلُّ توقُّع أوجب فتورًا في العبادة وركونًا إلى البطالة فهو غرَّة، كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل، فيقول له الشيطان: ما لك وإيذاء نفسك وتعذيبها ولك ربٌّ كريمٌ غفورٌ رحيم، فيفتر به عن التوبة والعبادة، وهي الغرَّة بعينها»[١٩].

إذًا أشار الشيخ ورَّام إلى قضيَّتين أخلاقيَّتين، **الأولى**: رجاء التوبة، وطلبُ نيلها، **والثانية**: الغرور والتمادي في الإثم والإصرار عليه، وهذا ما استشعره في النصوص القُرآنيَّة.

وقد أبان الزمخشريّ في ظلِّ تفسيره لهذه الآيات مجموعةً من المسائل، وهو منهج تفسيريّ اختطَّه لنفسه في تفسيره من أجل تشقيق المسائل وتنويعها في القضية التفسيريَّة المجوثة، فهو يرى أنَّ تخصيص اسم العباد يكون بالمؤمنين حصرًا، إذ ثبت أنَّ قوله: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ مختصٌّ بهم، وأنَّ الآية تدلُّ على الرحمة؛ لأنَّ اللائق بالرحيم الكريم إفاضة الخير والرحمة على المسكين المحتاج، والإضافة التشريفيَّة بياء الإضافة ﴿عِبَادِيَ﴾ لها وَقْع في هذه الرحمةِ والأمن من العذاب[٢٠]، ويرى كذلك أنَّ التوبة واجبةٌ على العبد، وخوف العقاب قائم، فإنَّا لا نقطع بإزالة العقاب بالكُلِّيَّة، وفي هذا يردُّ على الزمخشريّ الذي يرى أنَّ ذكر الإنابة على إثر المغفرةِ، لئَلَّا يطمع طامع في حصولها بغير توبة، وللدلالة على أنَّها شرط فيها لازم، لا تحصل من دون، وأقول: هذا الكلام ضعيف جدًّا؛ لأنَّ عندنا التوبة عن المعاصي واجبة، فلم يلزم من ورود الأمر بها طعن في الوعد

بالمغفـرة، فإن قالوا لو كان الوعد بالمغفرة حاصـلًا قطعًا لما احتيج إلى التوبة؛ لأنَّ التوبة إنَّما تراد لإسقاط العقاب، فإذا سقط العقاب بعفو الله عنه، فلا حاجة إلى التوبة، فنقول: هـذا ضعيف؛ لأنَّ مذهبنا أنَّه تعالى وإن كان يغفر الذنـوب قطعًا ويعفو عنها قطعًا، إلَّا أنَّ هـذا العفو والغفران يقع على وجهَين؛ تارةً يقع ابتداءً، وتارةً يُعذِّب مدَّة في النَّار، ثمَّ يُخرجه من النار ويعفو عنه، ففائدة التوبة إزالة هذا العقاب، فثبت أنَّ الذي قاله صاحب (الكشَّاف) ضعيف ولا فائدة فيه[٢١].

ومن المسـائل التي تعرَّض لها الفخر الرازيّ سـبب نزول هذه الآيات فهو يرى أنَّ هناك أسباب نزول، لهذا قيل: إنَّها نزلت في أهل مكَّة، فإنَّهم قالوا: يزعم محمَّد أنَّ مَن عبد الأوثان وقتل النفس لم يُغفر له، وقد عبدنا وقتلنا فكيف نسـلم؟ وقيل نزلت في وحشي قاتل حمزة لـمَّا أراد أن يسلم وخاف أن لا تُقبَل توبته، فلمَّا نزلت الآية أسلم، فقيل لرسول الله ﷺ هذه له خاصَّة أم للمسـلمين عامَّة؟ فقال: بل للمسـلمين عامَّة، وقيل: نزلت في أناس أصابوا ذنوبًا عظامًا في الجاهليَّة، فلمَّا جاء الإسلام أشفقوا لا يقبل الله توبتهم، وقيل: نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين أسلموا ثمَّ فتنوا فافتتنوا، وكان المسـلمون يقولـون فيهم: لا يقبـل الله منهم توبتهم، فنزلت هـذه الآيات فكتبها عمر، وبعث بها إليهم فأسـلموا وهاجروا، واعلم أنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فنزول هذه الآيات في هذه الوقائع لا يمنع من عمومها[٢٢].

وقد استشـعَر الطاهرُ بنُ عاشـورٍ التفسـير النفسـيَّ للمتلقِّين لهـذا الخطاب، قال: «أُطنبـتْ آيات الوعيـد بأفنانها السـابقة إطنابًا يبلغ مـن نفوس سـامعيها أيَّ مبلغ من الرعـب والخـوف، على الرغـم من تظاهرهـم بقلَّة الاهتمام بهـا، وقد يبلـغ بهم وقعها مبلـغَ اليـأس من سَـعيٍ ينجيهم من وعيدهـا، فأعقبهـا الله ببعث الرجاء في نفوسـهم للخـروج إلى سـاحل النجـاة إذا أرادوهـا، عـلى عادة هـذا الكتاب المجيد مـن مداواة

النفـوس بمزيـج الترغيب والترهيـب والكلام اسـتئناف بياني؛ لأنَّ الزواجر السـابقة تثير في نفوس المواجَهين بها خاطر التسـاؤل عن مسـالك النجاة، فتتلاحم فيها الخواطر الملَكيَّة والخواطر الشـيطانيَّة، إلى أن يُرسي التلاحم على انتصار إحدى الطائفَتَين، فكان في إنارة السـبيل لها ما يسـهِّل خطو الحائرين في ظلمات الشـكِّ، ويرتفق بها ويواسـيها بعـد أن أثختها جـروح التوبيخ والزجـر والوعيـد، ويضمِّد تلك الجراحـة، والحليمُ يزجُـر ويلين وتثـير في نفس النبي ﷺ خشـيةَ أن يحيط غضـب الله بالذيـن دعاهم إليه فأعرضـوا، أو حبَّبهم في الحقِّ فأبغضوا، فلعلَّه لا يَفتح لهـم باب التوبة، ولا تقبل منهم بعد إعراضهم أوْبَة، ولاسـيما بعـد أن أمره بتفويض الأمر إلى حكمه المشـتَمِّ منه ترقُّبُ قطـع الجـدال وفصمِه، فكان أمره لرسـوله صـلَّى الله عليه [وآله] وسـلَّم بـأن يناديهم بهـذه الدعوة؛ تنفيسًـا عليـه وتفتيحًا لباب الأوْبـة إليه»[٢٣]. ويـرى أنَّ الغالب في عادة القـرآن عند ذِكر ﴿عِبَـادِي﴾ بالإضافة إلى ضمـير المتكلِّم تعالى مُسـتدلًا بذلك ما جاء في صحيـح البخاريّ عن ابن عبَّاس: «أنَّ ناسًـا من أهل الشرك كانوا قد قَتلوا وأكثروا، وزنَـوا وأكثروا، فأتوا محمَّدًا ﷺ فقالوا: إنَّ الذي تقول وتدعو إليه لحسـن، لو تخبرُنا أنَّ لما عملنا كفَّارة، يعني وقد سـمعوا آيـات الوعيد لمن يعمل تلك الأعمال، وإلَّا فمن أين علمـوا أنَّ تلك الأعمال جرائم وهـم في جاهليَّة، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَـهًا آخَـرَ وَلَا يَقْتُلُـونَ النَّفْسَ الَّتِي حَـرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْـحَقِّ وَلَا يَزْنُـونَ﴾ (الفرقان: ٦٨)، يعني إلى قولـه: ﴿إِلَّا مَنْ تَـابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَـلًا صَالِـحًا﴾ (الفرقـان: ٧٠)، ونزل: ﴿قُلْ يَـا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلَى أَنْفُسِـهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِـنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّـهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[٢٤].

ويَلْمَحُ الشـيخ ناصر مكارم الشـيرازيّ الجانب التربويّ العظيم في الآيات المباركة في ضـوء فتح أبـواب الرحمة والصفـح والعفو عن المذنبين، ويسـتدلُّ عـلى ذلك بقول

الإمـام عليّ عليه السلام، قال: «إنَّ الله يغفـر الذنوب جميعًا بعد التهديدات المتكرِّرة التي وردت في الآيات السـابقة بشـأن المشركـين والظالمين، فإنَّ آيـات بحثنا فتحـت الأبواب أمام المذنبـين وأعطتهم الأمل؛ لأنَّ الهدف الرئيس من كلِّ هـذه الأمور هو التربية والهداية، وليس الانتقام والعنف، فبلهجةٍ مملوءةٍ باللطف والمحبَّة يفتح الباريء أبواب رحمته أمام الجميـع، ويصـدر أوامر العفو عنهم، عندمـا يقول: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلَى أَنْفُسِـهِمْ لَا تَقْنَطُـوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّـهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُـوبَ جَمِيعًا﴾. التدقيق في عبارات هذه الآية يبيِّن أنَّها من أكثر آيات القرآن الكريم التي تُعطي الأمل للمذنبين، فشموليَّتها وسِعتِها وصلت إلى درجة قال بشأنِها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: (ما في القرآن آية أوسـع مِن يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا) (...)، لهذا السـبب فإنَّ الآية المذكورة أعلاه من أوسـع وأشـمل آيات القرآن المجيد، إذ تعطي الأمل بغفـران كلِّ أنواع الذنوب، ولهذا السـبب فإنَّها تبعث الأمـل في النفوس أكثر من بقيَّة الآيات القرآنيَّـة، وحقًّا، فإنَّ الذي لا نهاية لبحر لطفه، وشـعاع فيضه غير محدود، لا يُتوقَّع منه أقلَّ من ذلك، وقد شـغلت أذهان المفسِّرين مسـألَتان، برغم أنَّ حلّهما كامن في هذه الآية والآية التي تليها، الأولى: هـل أنَّ عمومية الآية تشـمل كلَّ الذنوب حتَّـى الشرك والذنوب الكبـيرة الأُخرى؟، فإذا كان كذلك، فلمَ تقول الآية (٤٨) من سـورة النسـاء: إنَّ الشرك من الذنوب التي لا تغتفر ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِـمَنْ يَشَاءُ﴾»[٢٥].

٢. ﴿إِنَّهَـا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَـرِ * لِمَنْ شَـاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَـدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ (المدثر: ٣٥-٣٧).

قال الشـيخ ورَّام الحِـلِّيّ مبينًا أنَّ الأعمال الصالحة يجـب أن تكون مكنوزة ومحصَّلة عند العبد دائمًا؛ لأنَّ الرحيل والموت يأتي فجأةً، قال: «ما من صباح ولا مساء إلَّا ومنادٍ ينادي: أيُّها الناس، الرحيل الرحيل، وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ *

﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ في الموت»[٢٦].

ويرى الزمخشريّ أنَّ المراد من التقدُّم والتأخُّر هو السبق إلى الخير، والتخلُّف عنه، وهو كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩)، ويجوز أن يكون (لِمَن شَآءَ) بدلًا من (لِلْبَشَرِ) على أنَّها منذرة للمكلَّفين الممكِنين، الذين إن شاؤوا تقدَّموا ففازوا، وإن شاؤوا تأخَّروا فهلكوا»[٢٧].

وتنبَّه الفخر الرازيّ لقضيَّة أخلاقيَّة تتعلَّق بالجبر والتفويض، قال: «المعتزلة احتجُّوا بهذه الآية على كون العبد متمكِّنًا مِن الفعل غير مجبور عليه، وجوابه: إنَّ هذه الآية دلَّت على أنَّ فعل العبد معلَّق على مشيئته، لكنَّ مشيئة العبد مُعلَّقة على مشيئة الله تعالى لقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ (الإنسان: ٣٠)، وحينئذٍ تصير هذه الآية حجَّة لنا عليهم، وذكر الأصحاب عن وجه الاستدلال بهذه الآية جوابَين آخرَين، **الأوَّل**: أنَّ معنى إضافة المشيئة إلى المخاطبين التهديد، كقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩)، **الثاني**: أنَّ هذه المشيئة لله تعالى، على معنى لِمَن شاء الله منكم أن يتقدَّم أو يتأخَّر»[٢٨].

وقد أبان الطاهر بن عاشور جماليةَ الأسلوبِ القُرْآنيّ في النصوص القُرْآنيَّة المبحوثة، قال: «وقوله: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ بدل مفصَّل مِن مجمل من قوله: ﴿لِلْبَشَرِ﴾، وأُعيد حرف الجرِّ مع البدل للتأكيد، كقوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ (الأعراف: ٧٥)، وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (التكوير: ٢٧-٢٨) وقوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ (المائدة: ١١٤)، والمعنى: إنَّها نذيرٌ لمن شاء أن يتقدَّم إلى الإيمان والخير؛ لينتذر بها، ولِمَن شاء أن يتأخَّر عن الإيمان والخير فلا يرعوي

بنذارتها؛ لأنَّ التقدُّم مشي إلى جهة الإمام، فكأنَّ المخاطب يمشي إلى جهة الداعي إلى الإيمان، وهو كناية عن قبول ما يدعو إليه، وبعكسه التأخُّر، فحذف متعلِّق (يتقدَّم ويتأخّر)؛ لظهوره من السياق، ويجوز أن يقدِّر: لمن شاء أن يتقدَّم إليها، أي إلى سَقَر بالإقدام على الأعمال التي تُقدمه إليها، أو يتأخَّر عنها بتجنُّب ما من شأنه أن يقرِّبه منها، وتعليق (نذيرًا) بفعل المشيئة إنذار لمَن لا يتذكَّر بأنَّ عدم تذكُّره ناشيء عن عدم مشيئته، فتبعتُه عليه لتفريطه (...)، وقد تقدَّم في (سورة المزمل: ١٩) قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾، وفي الضمير منكم التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ لأنَّ مقتضى الظاهر أن يُقال: لمَن شاء منهم، أي مِن البشر»[٢٩].

ونَبْصُرُ الدقَّة التفسيريَّة البيانيَّة عند الشيخ ناصر مكارم الشيرازيّ في بيان مرجعيَّة الضمير في قوله: ﴿إِنَّهَا﴾، فضلًا عن ذلك أنَّ العذاب لا يخصُّ جماعةً دون جماعة، ويرى: أنَّ الضمير في (إنَّها) إمَّا يرجع إلى (سقر)، وإمَّا يرجع إلى الجنود، أو إلى مجموعة الحوادث في يوم القيامة، وأيًّا كانت، فإنَّ عظمتها واضحة، ثمَّ يضيف تعالى: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾؛ ليُنذر الجميع ويحذِّرهم من العذاب الموحش الذي ينتظر الكفَّار والمذنبين وأعداء الحقِّ، وفي النهاية يؤكِّد مضيفًا أنَّ هذا العذاب لا يخصُّ جماعة دون جماعة، بل: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾، فهنيئًا لمَنْ يتقدَّم، وتعسًا وترحًا لمَنْ يتأخَّر، واحتمل بعض كون التقدُّم إلى الجحيم والتأخُّر عنه، وقيل هو تقدُّم النفس[٣٠].

المبحث الثاني

النسق غير المباشر في الاستشهاد بالقرآن الكريم

في هذا المبحث سنتحدَّث عن النسق غير المباشر في الاستشهاد في القرآن الكريم، وسيكون في مطلبَين، هما: الأوَّل: الاستشهاد القرآنيّ المحوَّر (غير النصّيِّ)، الثاني: الدَّلالاتُ والمضامينُ القرآنيَّةُ.

المطلب الأوَّل: الاستشهادُ القرآنيّ المحوَّر (غير النصّيّ)

في هذا المطلب سنتحدَّث عن الاستشهاد القرآنيّ المحوَّر (غير النصِّيّ)، وهو نوع من الاستشهاد بخلاف الاستشهاد القرآنيّ غير المحوَّر (النصِّيّ) الذي يقوم كما قلنا: على الاستشهاد الحرفيّ (نصِّيًّا) بالقرآن الكريم.

ويقوم هذا المطلب على تقديم كلمة على أخرى في النصِّ القرآنيّ من جهة، وحذف كلمة أو زيادة كلمة من جهة أخرى، وهذه المقبوسات في الخطابِ الأخلاقيِّ المنتج، وسنحاول أن نذكر مجموعةً من الاستشهادات في هذا النسق.

أوَّلًا: نرقب القُرْآنيّةَ غيرَ المباشرة (المحوَّرة) في تكشيف صفة يوم القيامة ودواهيه، قال الشيخ ورَّام: «أخطر ببالك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعًا ورعبًا، وتساقطوا جثيًا على ركبٍ وولُّوا مدبِرين، وسقط بعضهم على الوجوه، وينادى الظالمون والعصَاة بالويل والثبور، ونادى الصدِّيقون نفسي نفسي، فبينما هم كذلك، إذ

زفرت النارُ زَفرَتها الثانيـة فتضاعف خوفهم، وتخاذلت قواهم، وظنُّوا أنَّهم مأخوذون، ثمَّ زفرت الثالثة فتسـاقط الخلائق بوجوههم وشـخصوا بأبصارهم ينظرون من طرفٍ خفيٍّ خاشـع، فانهضمت قلوب الظالمين فبلغـت الحناجر كاظِمين، فينادى العبد فيقال له: يا ابن آدم، ألمْ أكرمك وأسودك وأزوجك واسخِّر لك الخيل والإبل؟ ألم أنعم عليك بالشـباب، ففي ماذا أبليته؟ ألم أمهل عليك في العمر؟ ففي ماذا أفنيته؟ ألم أرزقك المال؟ ففـي ماذا أنفقته؟ ألم أكرمك بالعلـم؟ ففي ماذا عملت؟ فكيف ترى حياءك وخجلك، وهـو يعدُّ عليك إنعامه ومعاصيك وأياديه ومسـاويك وأنـت قائم بقلب خافق محزون وجـل، وطرف خاشـع ذليل، وفؤاد منكـسر، وأعطيت كتابك الـذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلَّا أحصاها»[٣١].

فقد استظلَّ الشيخُ ورَّامٌ من أجلِ ترسيخِ صفةِ يوم القيامة، واستجلاء دواهي هذا اليـوم بمجموعة من الصفات التي تظهر حال قلوب العباد، منها قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ (مريم: ٦٨)، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ (غافر: ٣٣)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (الفرقان: ١٣)، وقوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (الأنبياء: ٩٧)، وقوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ (الأحزاب: ١٠).

ثانيًا: من الأنماط القُرآنيَّة التي وظَّفها ابن طاووس الحِلِّيّ في دعاء العبرات، القرآنيَّة غير المباشرة (غير النصيَّة)، منها قوله: «سؤاله وبالمراحم والمكارم التي اقتضت الابتداء بالنوال قبل السـؤال، وبعد السؤال، وعند السؤال، وبالمراحم والمكارم التي أنكرت بها الآيسـين... وبالمراحم والمكارم التي أخَّرت بها عقوبة الكافِرين والمشركين والمتمرِّدين والمتشرِّدين والمنافِقين والفاسِقين»[٣٢].

ولا يخفى أنَّ ابن طاووس قد أقسم بالمراحم والمكارم، استشرافًا بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ (النساء: ١)، وقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٦)، وقوله تعالى: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (يس: ٢٧).

وقال ابن طاووس: «رَبِّ يا غوثَ المستغيثين ويا مجيبَ دعوة المضطرِّين يا أرحمَ الراحمينَ يا أرحمَ الراحمينَ يا أرحمَ الراحمينَ يا أرحمَ الراحمينَ يا أرحمَ الراحمينَ»[٣٣]. استشرافًا واستيحاءً بقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ (النمل: ٦٢)، وقال ابن طاووس: «وتقودهم طوعًا وكرهًا إلى مصلحته ومصلحتنا واجمين نادمين مغلولين مخذولين مكسورين مقهورين، وعرِّفنا قدر النعمة علينا بتعجيل إجابتك وتكميل رحمتك، وأوزعنا شكر ذلك بحولك وقوَّتك يا خير الناصرين ويا صاحب الوعود بإجابة الداعين، ومن مدح نفسه المقدَّسة بصرف السوء عن المظلُّون، وأحفظ فينا وصيَّتك ووصية سيِّد المرسلين وعترته الطاهرين، وأحفظنا بما حفظت به كنز أصحاب الجدار؛ لأجل مَن حفظته به من سلفهم الصالحين، فقد عرضنا حاجتنا على أبوابك بيد بوَّابك؛ ونحن الضعفاء المترقبون لما أنتَ أهله من جوابك، وأنتَ أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، والحمدُ لله كما أنتَ أهله يا ربَّ العالمين»[٣٤]، فقد استثمر ابن طاووس قوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (الأعراف: ٥٦)، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ (النمل: ١٩).

تبدَّى لنا في ضوء هذه المقتبسات القرآنيَّة غير المباشرة (المحوَّرة) وهي كثيرة، نرى في تأصيلها تضخيمًا للمادة، والخروج من سنن البحث العلميّ، وقد اكتفينا بهذا المقدار من النصوص؛ رعايةً للاختصار.

المطلب الثاني

الدلالات والمضامين القرآنيَّة

سنتناول في هذا المطلب أهمَّ الدلالات القرآنيَّة التي ترشَّحت من الخطاب الأخلاقيّ، وهذه المضامين والدلالات القرآنيَّة تمثِّل مفاهيم ومصطلحات قرآنيَّة لم تذكر مباشرةً، بل نلمحها ونرصدها من الخطاب الأخلاقيّ الحِلِّيّ.

نرصد مثلًا أنَّ الشيخ ورَّام قد أفاد من المعجم القرآنيّ أيَّما فائدة من جلِّ نصوصه، وهذه النصوص تمثِّل منظومةً دينيَّة خالصةً؛ إذ حاز القرب الإلهيّ فيها حيِّزًا وسيعًا، إذ نجد ذلك في معظم فصول مجموعة (تنبيه الخواطر ونزهة النواظر)، وبدا لنا رجوع الشيخ ورَّام إلى القرآنِ الكريمِ باستمرار، وهو الدليل على استكمال الثقافة الدينيَّة عنده، ويتجلَّى هذا النسق من القرآنيَّة ويزهر في كثير من نصوص الشيخ ورَّام الأخلاقيَّة، ويكاد يكون هو النسق الأبرز، إذ نجد المفاهيم القرآنيَّة، ودلالات المضامين القرآنيَّة حاضرة فيها، ويبدو أنَّ قرب الشيخ ورَّام من كتاب الله قراءةً وفهمًا وحفظًا قد جعله يستثمر هذا الأثر العظيم، ودونك كلام الشيخ ورَّام في وصف القرآن الكريم في باب (التفكُّر)، إذ وصفه وصفًا مُعْجِبًا، قال: «فعليك بقراءة القرآن والتفكُّر فيه، فإنَّه جامع لجميع المقامات والأحوال، وفيه شفاء للعالمين، وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر وسائر الصفات، وفيه ما يزجر عن جميع الصفات المذمومة، فينبغي أن يقرأه العبد، ويردِّد الآية التي هو مُحتاج إلى التفكُّر فيها مرَّةً بعد أخرى، ولو مئة مرَّة، فقراءة

آية بتفكُّر وفهم خير من ختمة بغير تفكُّر وفهم، وليتوفَّق في التأمُّل فيها ولو ليلة واحدة، فـإنَّ تحت كلِّ كلمةٍ مِنها أسرار لا تنحصر ولا يوقـف عليها إلَّا بدقيق الفكر عن صفاء القلب»[٣٥].

ويرى الشيخُ ورَّام أنَّ القرآن الكريم كتابُ حياةٍ يُحْيي الله به الناسَ، ويُخْرِجُهم من الظلمات إلى النورِ، ومن الضَّلالة إلى الهُدَى، من أجل ذلك نَلمحُ في النصِّ الورَّاميّ لزوم التفكُّر في القرآنِ الكريمِ والتدبر بآياته، إذ يستحضر السياقَ الاستفهاميّ الإرشاديّ والنصحيّ والوعظيّ في تدبر القرآن بحسب قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمَّد: ٢٤)؛ لما فيه من عظات وتعاليم متكاملة، فهو شفاء للصدور، إذ يستحضر الوصف القرآنيّ للقرآن نفسه؛ فصوَّر القرآن نفسه بأنَّه شفاءٌ ونورٌ وكتابٌ مبينٌ، وكتابُ هدايةٍ وصراطٍ مستقيم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٥٧)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥)، حقًّا وصدقًا أنَّ التفكر في الشواهد القرآنيَّة والحديثيَّة، واستلهام سيرة المصطفى صلى الله عليه وآله طريق مهيع في النجاة، والدليل العظيم إلى الوصول إلى مراقي الرفعة والقرب الإلهيّ. قال الرسول صلى الله عليه وآله: «**فإذا التبست عليكم الفِتن كقِطَع الليل المظلم فَعليكُم بالقرآنِ؛ فإنَّه شافعٌ مُشفَّعٌ وما حلَّ مُصدَّق، ومَن جعله أمامه قاده إلى الجنَّة، ومَن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدلُّ على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان التحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة، ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة**»[٣٦].

ونبصر المعاني والدلالات القرآنيَّة في الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس، ففي ظلِّ استقراء تراث ابن طاووس وأدبه، ولاسيما دعاء العبرات، نجد نفثات من دلالات القرآن الكريم والمعاني المصطفَيات من روح الله ﷻ ظاهرةً على خطابه الأخلاقيّ، رحم الله ابن طاووس، لقد كان في خطابه الأخلاقيّ كحركة الغوَّاص الرائد الذي لا يقف على السطح، ولا يستقر عند القاع، فمعانيه القرآنيَّة تقطر وتفيض، والقرآن الكريم «من جهة الأدب غاية الجمال، ومن جهة الفضيلة غاية الخير، ومن جهة الفلسفة غاية الحقِّ»[٣٧].

تأمَّل معنا استشرافه لحادثة هداية سحرة فرعون، بوساطة اللطف الإلهيّ، فشملتهم الهداية الربَّانيَّة، والعاقبة الإلهيَّة الرحيميَّة، قال ابن طاووس: «وبالمراحم والمكارم التي ابتدأت بها سحرة فرعون وما عرفوك ولا طلبوك ولا تعرَّضوا لرحمتك ولا تعرضوا لإجابتك»[٣٨]، استيحاءً من قوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (الأعراف: ١٢١-١٢٢)، واستشرافًا لهداية أهل مكَّة ممَّن شملتهم الرحمة الإلهيَّة، والعناية الربانيَّة في تخلُّصهم من الكفر والضلال إلى التوحيد والسعادة والهداية والعاقبة الحسنة، قال ابن طاووس: «وبالمراحم والمكارم التي ابتدأت بها أمم الأنبياء عليهم السلام، وقد كانوا على عظيمٍ من الكفر والطغيان والعصيان واستحقاق العذاب والهوان»[٣٩]، استشرافًا لقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود: ٤٩)، وقوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ﴾ (الأعراف: ٤٣)، وقد استوحى رمزيَّة الدعاء والاستغفار في إنقاذ أقوام الأنبياء، كما في هداية قوم إدريس، ويونس عليهما السلام، قال ابن طاووس: «بسعاداتهم وبالمراحم والمكارم التي أجبت بها قوم إدريس وقوم يونس، ومَنْ كان على نحو سوء أعمالهم، وقد غضبت عليهم أنبياؤهم وتوعَّدوهم بما يستحقُّونه من نكالهم، وأشرفوا على الهلاك، وعجزوا عن الاستدراك،

فرحمت شكواهم، وكشفت بلواهم»[٤٠]، وهو استيحاء من قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آَمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (يونس: ٩٨).

وكذلك رمزيَّة اللقاء بين يوسف وأبيه يعقوب عليهما السلام بعد اليأس من اللُّقيا، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ الدعاء والاستغفار يهدمان القضاء والقدر هَدْما، قال ابن طاووس: «وبالمراحم والمكارم التي جمعت بها شمل يوسف ويعقوب»[٤١]، وهو استشراف لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (يوسف: ١٠٠).

وتتعالى هذه الدلالات والمعاني القرآنيَّة، وتشرق في خطابه الأخلاقيّ، كما هو الحال في قوله: «وبالمراحم والمكارم التي كشفت بها كربات أيُّوب»[٤٢]، وفي ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٤٤)، وخلاص يونس عليه السلام من الحوت واليمِّ، قال: «وبالمراحم والمكارم التي خلَّصت بها يونس بن متَّى من بطن حوت هو يمّه»[٤٣]، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧).

خاتمةُ البحثِ ونتائجُهُ

ونحن ننقلُ سطورَ هذا البحث، لا بُدَّ من إلماحةٍ نَحْسَبُها مهمَّة في بيان أهمِّ النتائج التي توصَّلنا إليها، وهي:

أوَّلًا: إنَّ الكتاب العظيم (القرآن الكريم) قد زَهَرَ في الخطابَ الأخلاقيّ، ويكفي القارئ إمتاعًا أن يقف على قسم من النصوص الدينيَّة؛ للتلميح الاستشاريّ والاستشرافيّ في كتاب الله ﷻ، إذ تنوعتْ تقنياتُ الاقتباسات وتلوَّنت، والتي تجسِّد أنساقًا وأنماطًا من الأثر القرآنيّ في الخطاب الأخلاقيّ.

ثانيًا: بَدَا لنا أنَّ الاستشهادات (غير المباشرة) نلمح فيها الاستشار القرآنيّ للنصِّ المستشهَد به من تقدُّم ألفاظه بعضها على بعض، وكذلك عدم ذكر النصِّ حرفيًّا، وهو استشار قرآنيّ غير نصِّيّ، بمعنى أنَّ النصَّ القرآنيَّ قد وظِّف توظيفًا غير مباشرٍ، فنلمح التقديم والتأخير في ألفاظه من جهة، والاكتفاء بكلمات محوريَّة في النصِّ المقبوس.

ثالثًا: في ضوء تدبُّر الخطابات الأخلاقيَّة عند علماء الحِلَّة، نجدُ أنَّهم كانوا يختارون العبارات القرآنيَّة في هذه الخطابات، فنجد التماهي الحاضر بين الخطابَين.

هوامش البحث

(١) ابـن طـاووس، رضيّ الدين عليّ (ت٦٦٤هـ)، محاسـبة الملائكة الكرام آخـر كل يوم من الذنوب والآثام أو محاسبة النفس، تحقيق هادي حسن القبيسيّ العامليّ، ج١، ص٩.

(٢) المجلسيّ، محمَّد باقر (١١١٠هـ)، عنه بحار الأنوار، ج٢٢، ص٣٥٣، باب عرض الأعمال عليهم.

(٣) الرازي، فخر الدين، أبو عبد الله محمَّد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيميّ (ت٦٠٦هـ)، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، ج٨، ص١٤٥-١٤٦.

(٤) ابن عاشور، محمَّد الطاهر (ت١٩٧٣م)، تحرير والتنوير، ج٦، ص٣٧٩.

(٥) الشيرازيّ، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٦، ص١٩٩.

(٦) الحِلِّيّ،الشـيخ ورَّام بن أبي فراس (ت٦٠٥ هـ)، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، تحقيق باسـم محمَّد مال الله، ج١، ص١١٣.

(٧) الطوسيّ، أبي جعفر محمَّد بن الحسن (ت٤٦٠هـ)، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق وتصحيح أحمد حبيب قصير العامليّ، ج٩، ص٣٣٩.

(٨) الرازي، فخر الدين، أبو عبد الله محمَّد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيميّ، ج١٤، ص١٨٨ - ١٨٩

(٩) ابن عاشور، محمَّد الطاهر (ت ١٩٧٣م)، تحرير والتنوير، ج١٤، ص٢٧-٢٨.

(١٠) العلَّامـة الحِلِّيّ، جمال الدين الحسـن بن يوسـف بن المطهَّر (ت ٧٢٦هـ)، تحقيـق حامد الطائيّ، رسالة الوصيَّة.

(١١) الزمخشريّ، أبو القاسم محمَّد بن أحمد (ت ٥٣٨هـ)، الكشَّاف، ج١، ص١٤٨.

(١٢) ابن عاشور، محمَّد الطاهر (ت ١٩٧٣م)، تحرير والتنوير، ج٢، ص٥٧-٥٨.

(١٣) الشيرازيّ، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١، ص١٥٨-١٥٩.

(١٤) الحرُّ العامليّ، محمَّد بن الحسـن (ت ١١٠٤هـ)، وسائل الشيعة، مؤسَّسة أهل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، ١٤١٤هـ، ج٧، ص٢٧.

(١٥) الحِلِّيّ، أحمد بن فهد (٨٤١هـ)، عدَّة الداعي ونجاح الساعي، ج١، ص١٣-١٤.

(١٦) الطوسيّ، أبي جعفر محمَّد بن الحسـن (ت ٤٦٠هـ)، التبيان في تفسـير القرآن، تحقيق وتصحيح أحمد حبيب قصير العامليّ، ج٢، ص١٢٦-١٢٩.

(١٧) الـرازي، فخـر الدين، أبو عبد الله محمَّد بن عمر بن الحسـن بن الحسـين التيمـيّ (ت٦٠٦هـ)، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، ج٣، ص١٠٨-١١١.

(١٨) الطباطبائيّ، السيِّد محمَّد حسين (ت١٤٠٢هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج٢، ص١٦-١٨

(١٩) الحِلِّيّ،الشـيخ ورَّام بن أبي فراس (ت٦٠٥ هـ)، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، تحقيق باسم محمَّد مال الله، ج١، ص٥٣٣-٥٣٤.

(٢٠) الـرازي، فخـر الدين، أبو عبد الله محمَّد بن عمر بن الحسـن بن الحسـين التيمـيّ (ت٦٠٦هـ)، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، ج١٣، ص٢٧٢-٢٧٤

(٢١) المصـدر نفسـه، ج١٣، ص٢٧٢-٢٧٤، ويُنظـر: الزمخـشريّ، أبـو القاسـم محمَّـد بـن أحمـد (ت٥٣٨هـ)، الكشَّاف، ج٦، ص٧٧.

(٢٢) يُنظر، الرازيّ، فخر الدين، أبو عبد الله محمَّد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيميّ (ت٦٠٦هـ)، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، ج١٣، ص٢٧٥.

(٢٣) ابن عاشور، محمَّد الطاهر (ت ١٩٧٣م)، تحرير والتنوير، ج١٢، ص٣٦٥.

(٢٤) المصدر نفسه، ج١٢، ص٣٦٧، ويُنظر: صحيح البخاريّ،ج١٦، ص٧٤.

(٢٥) الشيرازيّ، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٥، ص١١٧-١٢١

(٢٦) الحِلِّيّ، الشـيخ ورَّام بن أبي فراس (ت٦٠٥هـ)، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، تحقيق باسم محمَّد مال الله، ج٢، ص٢٩.

(٢٧) الزمخشريّ، أبو القاسم محمَّد بن أحمد (ت ٥٣٨هـ)، الكشَّاف، ج٧، ص١٨٤.

(٢٨) الـرازيّ، فخـر الدين، أبو عبد الله محمَّد بن عمر بن الحسـن بن الحسـين التيمـيّ (ت٦٠٦هـ)، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، ج١٦، ص١٦٥-١٦٧.

(٢٩) ابن عاشور، محمَّد الطاهر (ت ١٩٧٣م)، التحرير والتنوير، ج١٥، ص٤٢٢-٤٢٣.

(٣٠) الشيرازيّ، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج١٩، ص١٨١.

(٣١) تنبيه الخواطر، ص٣٠٥.

(٣٢) ابـن طـاووس، رضيّ الدين عـليّ (ت ٦٦٤هـ)، مهج الدعوات ومنهـج العبادات، ص٣٢٦-٣٢٧.

(٣٣) المصدر نفسه، ص٣٢٩.

(٣٤) المصدر نفسه، ص٣٣١.

(٣٥) الحِلِّيّ،الشـيخ ورَّام بن أبي فراس (ت٦٠٥هـ)، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، تحقيق باسـم محمَّد مال الله، ج١، ص٦٠٤.

(٣٦) يُنظر: الحِلِّيّ،الشيخ ورَّام بن أبي فراس (ت٦٠٥ هـ)، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، تحقيق باسم محمَّد مال الله، ج١، ص٥٩٩، ويُنظر: الكلينيّ، محمَّد بن يعقوب (ت٣٢٩هـ)، الكافي، ج٢،ص٥٩٩.

(٣٧) يُنظر،الزيَّات، أحمد حسن، وحي الرسالة (فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماعي)، ج١، ص٤٤٢.

(٣٨) ابن طاووس، رضيّ الدين عليّ (ت ٦٦٤هـ)، مهج الدعوات ومنهج العبادات، ص٣٢٧.

(٣٩) المصدر نفسه، ص٣٢٧.

(٤٠) المصدر نفسه، ص٣٢٧.

(٤١) المصدر نفسه، ص٣٢٧.

(٤٢) المصدر نفسه، ص٣٢٨.

(٤٣) المصدر نفسه، ص٣٢٨

مصادر البحث

١. ابن طاووس، رضيّ الدين عليّ بن موسى الحِلِّيّ (ت٦٦٤هـ)، محاسبة الملائكة الكرام آخر كلِّ يوم من الذنوب والآثام أو محاسبة النفس، تحقيق الشيخ هادي حسن القبيسيّ العامليّ، مجلّة تراثنا، العددان الأوّل والثاني، ٤٥ و٤٦ السنة الثانية عشر، محرَّم-جمادى الآخرة، ١٤١٧هـ.

٢. ابن طاووس، رضيّ الدين عليّ بن موسى الحِلِّيّ، (ت٦٦٤هـ)، مهج الدعوات ومنهج العبادات، قدَّم عليه وعلَّق عليه الشيخ حسن الأعلميّ، ط١، منشورات مؤسَّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٣. ابن عاشور، محمَّد الطاهر (ت ١٩٧٣م)، التحرير والتنوير، ط١، دار التونسيَّة للنشر والتوزيع، ١٩٨٤م.

٤. البخاريّ، محمَّد بن إسماعيل أبو عبد الله (ت ٢٥٦هـ)، صحيح البخاريّ، تحقيق محمَّد زهير بن ناصر الناصر، ط١، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ.

٥. الحرُّ العامليّ، محمَّد بن الحسن (ت ١١٠٤هـ)، وسائل الشيعة، مؤسَّسة أهل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، ١٤١٤هـ.

٦. الحِلِّيّ، الشيخ ورَّام بن أبي فراس (ت٦٠٥ هـ)، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، تحقيق باسم محمَّد مال الله، ط١، مؤسَّسة الأعلميّ، بيروت ١٤٣١هـ/ ٢٠١٣م.

٧. الحِلِّيّ، أحمد بن فهد (ت ٨٤١هـ)، عدَّة الداعي ونجاح الساعي، ط١، مؤسَّسة الفكر الإسلاميّ، بيروت١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٨. الرازيّ، فخر الدين، أبو عبد الله محمَّد بن عمر بن الحسن (ت ٦٠٦هـ)، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)،ط٣، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ.

٩. الزمخشريّ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (ت ٥٣٨هـ)، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، ط١، مؤسَّسة الأعلميّ، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ.

١٠. الزيَّات، أحمد حسن (ت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، وحي الرسالة (فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع)، ط٧، مكتبة النهضة مصر، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.

١١. الشيرازيّ، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزَّل، ط١، تصحيح٣، الناشر مدرسة

الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ١٤٢٦هـ.
١٢. الطباطبائيّ، السيِّد محمَّد حسين (ت١٤٠٢هـ)، الميزان في تفسير القرآن، مؤسَّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرِّسين، قم، إيران، د.ت.
١٣. الطوسيّ، أبي جعفر محمَّد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ)، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق وتصحيح أحمد حبيب قصير العامليّ، دار إحياء التراث العربيّ، لبنان، بيروت ١٢٠٩هـ.
١٤. العلَّامة الحِلِّيّ، الحسن بن يوسف بن المطهَّر (ت ٧٢٦هـ)، الوصية، تحقيق حامد الطائيّ، مجلة تراثنا، العددان الأول والثاني (٤١-٤٢)، السنة الحادية عشر محرَّم- جمادى الآخرة، ١٤١٦هـ.
١٥. الكلينيّ، محمَّد بن يعقوب (ت٣٢٩هـ)، الكافي، تحقيق عليّ أكبر الغفاري، ط٤، مطبعة حيدري، دار الكتب الإسلاميَّة، طهران، إيران، ١٣٦٥ش.
١٦. المجلسيّ، العلَّامة محمَّد باقر (ت١١١١هـ)، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمَّة الأطهار، تحقيق محمَّد باقر بهبودي، ط٢، مؤسسة الوفاء، بيروت لبنان، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.